

ليس كل الوزر على المرأة

عبدالله الحداد

جريدة الأيام البحرينية

2006-9-23

في ذلك اليوم الجميل، يوم السبت الموافق السادس عشر من سبتمبر، يوم افتتاح المؤتمر التأسيسي للاتحاد النسائي البحريني، الذي ولد بعد مخاض عسير ومقاومة وإصرار يعكس نضال المرأة البحرينية لأكثر من خمسة عقود، هذا النضال الذي نفتخر به ونهني المرأة البحرينية على هذا الإنجاز العظيم، حمل أحد المتحدثين في المؤتمر نساء البحرين، وخص الحاضرين كونهن أهم شرائحها، وزر سقوط ممثلتهم المرأة المترشحة في مجلس ٢٠٠٢ النيابي والبلدي، طالبا منهن أن يقفن وراءها هذه المرة، على أن يخترن أفضل الكفاءات للترشح. وقبل أن أضع تساؤلاتي وأسجل اعتراضاتي على ما تقدم، أحب أن أبدي رأيا حول المرشحات في ٢٠٠٢، لقد كن أغلبهن كفاءات لا يستهان بها، ولا نحتاج لذكر أسمائهن وسنين العطاء في العمل السياسي والاجتماعي والنسوي، لقد كن قناديل رائعات سطعت في سماء البحرين

ومع ذلك نتساءل: هل حقا كانت المرأة هي سبب سقوط بنت جنسها؟ أم أن تكرار المقولة جعل البعض منا يصدق ذلك دون أن يشك ويتفحص؟ إن تداول المقولات المجتمعية دون إخضاعها لدائرة الشك والجدل تترك آثارا سلبية على نمو أفراد وقطاعات المجتمع، ويعتبر من سمات الترهل الفكري وسيطرة الطابع الاستهلاكي الذي يصل إلى خلايا العقل فيحد من الاجتهاد والصبر على مشاقه، ويساعد على انتشار ظاهرة التردد دون معرفة عواقب الأمور. إن العقل المستكين المسلم بظواهر الأمور مؤشر على بداية انتكاسات فكرية داخل فئات المجتمع، تساعد المتغلغلين على إثارة الفتن وإشاعة التبلد العقلي العام، وبروز ظاهرة البحث السريع للمبررات والتسليم لأبسط التحديات، واضمحلال الجدل، وعدم الرغبة في البحث عن شوائك الأمور لطرحها محل البحث والتمهيد لتغييرها إلى الأحسن. إن أعظم فلسفة ساعدت على انتشار العلم والتقدم المعاصر وهي الفلسفة اليونانية التي بدأت بالشك والمحاورات والجدل لاستخراج الحقائق والتعريف بماهيات الأشياء، حيث كان سقراط أبرز أعلامها يجادل السفسطائيين حتى قدم حياته قربانا لتشيئه بما كان يؤمن. ولم يكن أبوانا من المسلممين بما يطرح، بل كانوا أثناء الخمسينيات والستينيات وحتى السبعينيات، يلازمون الراديو يعثون بالمؤشر ليسمعوا أكثر من وجهة نظر مخالفة، فكانت محطة البي بي سي وراديو المانيا النازية بمذيعه المشهور «يونس بحري» الذي كانوا يتلصصون في سماعه خوفا من القوات البريطانية، وظلوا بعد ذلك على نفس المنوال حتى بعد الثورة المصرية ومناصرتهم لها ولم يكتفوا بما يقوله راديو القاهرة وصوت العرب «احمد سعيد». هكذا كانت عقول البحرينيين على رغم بساطتهم وقلة علمهم. رحمك الله يا ديكارت يا أبا النهضة فقولك المشهور أنا أشك إذن أنا موجود لم يعد له وجود!

لا ليست المرأة هي السبب، فليست المشكلة في عدم تصويت المرأة لجنسها، لأن ذلك تبسيط لحقب الظلم الاجتماعي والسياسي الذي وقع على المرأة. لقد بسط الرجل نفوذه على المرأة آلاف السنين، وتمثل ذلك في العادات والتقاليد، وتردد أثناء تعليم الكتاتيب، ثم دخل مناهج التعليم العام، كما قننته الدولة في قضائها ومحاكمها، ومارسته دواوين الحكومة في وظائفها، فشعرت المرأة بأنها تبع للرجل، يحكم فيطاع، ولم تسطع نهضة الأربعين سنة من التقدم الاجتماعي والسياسي التي مرت على البحرين من مطلع الخمسينيات إلى ما قبل الثمانينات من الصمود بعد حدوث التراجعات المستمرة بعد سيطرة القوى المحافظة في الفترة الأخيرة، والتي شكلت قوى شد وتوقف وهبوط للإنجازات، وعامل مضاد لأحلام الناس سواء

داخل أجهزة الدولة، أو بتكريسها للفكر المتخلف وإعادة إنتاج المؤسسات المتشنجة مستغلة الدين
السمح لإضفاء الشرعية على توجهاتها، مدعومة بكل الأموال والأقوال، مما جعل الكثير من
النساء تؤمن بأنها أدنى من الرجل وذيلاً له، وربما آمن بعضهن بأنهن من ضلع أعوج!
ساعد في ذلك تقلص القوى الانفتاحية الدافعة، بسبب ترنحها من الضربات والاعتقالات والتشريد
والتهجير.

لكل ذلك.. لا يجوز تحميل المرأة وزر آلاف السنين وتراجعات السنوات الأخيرة، وتصويره بأنه
وزرها وكأنهن فئة خارجة عن التكوين البشري والضغط الاجتماعي. وان كان لها نصيب فهو لا
يتعدى وزر الرجل الذي لم يستطع اختيار الرجل الكفؤ.

علينا أن لا نطلق الأحكام الجراف، وعلى المتقدمين من النسوة نبش التراث الفكري، وإعادة
التفكير في أقوال المفسرين والعلماء، فهم بشر أسرى زمانهم، ولا بشر معصوم من الخطأ، ولا
بشر يمكنه أن يسبق زمانه دهوراً، وإن حدث شيء من هذا فإنه من قبيل الأنبياء والقديسين
القلائل، ولا يصح من خلال هذا الاستثناء أن نمنح الجميع ذات القوة والبعد والطهارة.
إن من اسقط المرأة هي التركة التي استعادتها وعززتها روح التخلف، لأن قبل ذلك كانت قد
خرجت بكل قوة في بناء المجتمع، وساهمت في الانتفاضة على القيود في المحطات النضالية،
واحتلت الندية والمساندة مع الرجل المنفتح ومع القوى المؤمنة بالمساواة والتغيير، فصارت جنباً
إلى جنب في المنزلة والمكانة .

لكنها إن كانت غارقة الآن في وحول التراجع فعلى الاتحاد النسائي وبتكاتف جهوده مع القوى
النصيرية أن ينزل إلى هموم الزوجة والعاملة والمطلقة والأرملة والفتاة التي تود تشكيل مستقبلها
بذاتها والموظفة والمواطنة التي تزوجت من أجنبي وتود أن يحمل أبنائها جنسية وطنها الأم
وتطالب بتغيير كافة القوانين التي تقنن كل ذلك التمييز، وأن تقف ضد استغلال النسوة في البلاد
سواء كن مواطنات أو أجنبيات، عليها أن تفكر في عمل نوعي يصل إلى كافة قطاعات النساء
حتى تحصد أزرهن.

إن وصلتم لأكثر النساء حاجة يدا بيد مع مؤسسات سياسية تحتاج إليكم وإلى قوتكم دون تحسس
ودون فوضى في تحديد الهدف فستؤسسون ندية وتعاون في التحالف وستختصرون عليكم وعلى
مجمل أوضاع الوطن مسافة الطريق!